يشغل نفسه بشواغل اسمى وارفع من امور هذه الحياة الزائلة وان الفرح الاقصى وسرور النفس الثابت في هذه الارض انما هو القيام بالواجب يتممهُ الانسان بنعمته تعالى رغمًا عن كل العوائق فيعظم خالقهُ ويعبده ويحبه دون ان يعبأ بشيء.

ولما كانت ثقتنا بالسيدة الطاهرة ابنة الاب ووالدة الابن وعروسة الروح القدس ان تنال لنا من الثالوث المقدس المسجود لهُ اياماً اسعد وايمن نهديكم من صميم الفؤاد كعربون السلام والهدوء بعد الانواء. كما لنا الامل بركتنا الرسولية لكم ايها الاخوة المحترمون ولجميع اكليروسكم ولكل الشعب الفرنسوي

أُعطي في رومية بجوار كنيسة القديس بطرس في يوم عيد القطاس ٦ كانون الثاني سنة ١٩٠٧ وهي السنة الرابعة لحبريتنا

بيوس العاشر

المذاكرات الجغرافيَّة في الاقطار السوريَّة

للاب هنري لامنس مدرّس التاريخ والجغرافية في المكتب الشرقي

تمهيد

تجوّلنا في انحاء لبنان مع قرّائنا الكرام فسرّحوا معنا الابصار في ما يحتويهِ هذا الجبل من الآثار فوجدوا في هذا النظر فائدةً ولذّة . ومذ ذاك الحين ألحّوا علينا بان نوسّع نطاق ابحاثنا فتشمل بدروسنا كلّ انحاء الشام فها نحن نلبّي ملتمسهم ونباشر كتابة فصول متتابعة في هذا الشأن نُطلق عليها اسماً جامعاً فندعوها « المذاكرات الجغرافيَّة في الاقطار السوريَّة »

وقبل ان نُقدم على العمل ندوّن هنا خلاصة مشروعنا ليكون القرّاء على بيّنة مما قصدناهُ . نفتح اليوم مياق مذاكرات شتّى نتابعها على صفحات المشرق بسرعة كافية مع مراعاة الظروف والاحوال . ويكون ابتداء كلامنا في ابحاث عمومية عن موقع سوريَّة الجغرافيّ وما ناتتهُ هذه البلاد في سالف الزمان لفضل مركزها من المنافع والمرافق وما ينتظرها ايضاً بسببهِ في المستقبل من النجاح . ثمَّ ننتقل الى وصف صورتها وتخطيطها ثم نذكر جبالها ومياهها مع البحر الذي يماسُّ سواحلها ثمَّ نصف مواليدها

من معادن ونبات وحيوان. واذا انتهينا من هذا النظر العمومي ننتقل ان شاء الله الى اوصاف كل جهة بجدتها ونعرّف خواصّ حواضرها وتاريخ ابنيتها القديمة وآثارها الجليلة وكلّ ذلك على التقريب يوافق الفصول التي خصصناها بلبنان واحواله

فمن هذا الرسم الوجيز ترى سعة الوادّ التي تشملها ابحاثنا اذ لا تتناول فقط الاحوال الحاضرة بل تمتدّ ايضاً الى ما سلف عهده. وأملنا انّ القارئ يصحبنا في هذه الرحلة الطويلة دون ان يأخذه الملل ولا ريب انهُ يستدرك هذا الخطر ان صرف نظره الى ما يقال ليس الى من يقول لأنّ الموضوع ذو بال كثير الشُعَب متعدّد المناظر يعاين فيه القارئ مع طوله مشاهد فتّانة تتناوب وتتوالى فيقرّ اليها بصره ولا يحسّ بسأم. وزد على ذلك انّ الذي نصفهُ ليس بامر غريب عن القرّاء لكنّهُ امرٌ قريب نحنّ اليه اضلاعهم وتمسّهُ مشاعرهم اعني سوريّة مسقط رأسهم ووطنهم العزيز فكل ما يخوط به يهمّهم شأنهُ ويجدر بهم الالتفات اليه. وهذا الذي حدانا الى مباشرة العمل كي نريد قرّاءنا اعتباراً لبلادهم اذا ما عرفوا كلّ ما اودعهُ الخالق من المحاسن والكنوز. فمن الله نطلب ان يمدّ الينا يد المساعدة لنقوم بهذا المشروع قياماً اهلاً بسموّ شأنهِ فنحقّق اماني القرّاء فينا

وها نحن نصدّر مقالاتنا بفصل اعداديّ نبحث فيه عن موقع سوريّة جغرافيا لنستدلّ به على تاريخها القديم. ولهذا الفصل مقدّمة غاية في الاعتبار تعود الى اصل العترة البشريّة كلّها. اعني

١

سوريّة ومهد الجنس البشري

قال اتيان لامي (١ ما تعريبهُ: « انّ في العالم بلاداً تتصافح فيها اقطار اوروبّة وآسية وافريقية. وتعيش بالالفة على السواحل تقسمها. هي بلاد برّية وبحريّة معاً. هي سوقٌ جامعة لمرافق مئة مدينة ومرفأ تتبادل فيه القارات الثلاث محصولاتها المتنوّعة. هناك تتصلّب وتتوارد الطرق التجاريّة التي فتحها العالم القديم. هي اقدم موطن يعاينه فيه الانسان آثار اقدامه. فيها نشأت اخصّ الديانات الشائعة. وخلاصة القول لستَ تجد

(١ في مقدّمة كتابه المنون « La France du Levant »

حيثما نظرت بلداً اصغر من هذا في مساحته قد اختلطت فيه وتزاحمت امم اكثر وديانات اعظم وآثار اخطر »

نعم القول يسرُّنا ان ننقلهُ عن كاتب بليغ فنحلّي بهِ مطلع هذه الدروس التي افردناها لسوريّة وآثارها

ولا مراء انَّ سوريّة قبل كلّ بلادُ القدَم بلاد الزمن السابق للتاريخ . فليت شعري أليس لها علاقة مع اوّل منازل البشر ؟ انَّ الانسان منذ الوف من السنين قد طبع في ذهنهِ ذكر فردوس ارضي ظهر فيهِ جنسهُ فاين هي يا تُرى هذه جنَّة عدن ؟ افي العراق ؟ افي سهول ما بين النهرين ؟ افي غوطة دمشق وبقعتها الفيحاء كما ارتأى القديس اغناطيوس منشئ الرهبانيَّة اليسوعيَّة في كتاب رياضاتهِ الروحيَّة ؟ هذه الآراء وغيرها قد كُتبت فيها التآليف الواسعة بل تجفّ المحابر قبل ان يُستقصى فيها البحث او يُكشَف سرّها بالتمام امَّا كون الفردوس في تخوم سوريّة فهذا احد الآراء الثمانين التي قال بها الكتبة (١ يؤيّدهُ كون الفرات يجري في بعض جهات هذه البلاد

في النصف الاوّل من القرن السابق نزل عند لحف لبنان شاعر كان اصاب الشهرة في قومهِ يُدعى لامرتين . فاعجبهُ طيب هواء البلاد فاتّخذ بيروت لهُ موطناً وكان يخرج منها الى انحاء الشام ليزورها ويدرس آثارها . ففي بعض مسيرهِ رقي أكمة الاشرفيَّة فوق كنيسة مار متري فاجال نظرهُ ملياً في المشاهد التي كانت تحدق بهِ فاخذت بمجامع قلبهِ وكادت تسحر لبَّهُ . فكان يرى البحر حول بيروت من جهاتها الثلاث كانهُ المنطقة المزركشة بالارجوان والذهب . وكان ينظر على شماله لبنان الناطح بقرنهِ السحاب وبين هذا الجبل وموقف الشاعر كانت تنبسط السهول السندسيَّة الغنيَّة بزارعها منها غابات الزيتون عند شويفات وغابة الصنوبر . وكان يجد في ارمال بيروت صورة ملطَّفة لمفاوز بلاد الصحراء . نعم انَّ في العالم محاسن اجمل وابدع ولكن أيوجد في العالم امكنةٌ عديدة جمع فيها الله كلّ هذه المناظر المتباينة والروي الفاتنة في دائرة ضيّقة كهذه ؟ ذلك ما شغل فكر الشاعر زمناً طويلاً فبقي غائصاً في تأمُّلاتهِ الى ان عاد الى نفسهِ فهتف : « حقيقةً انَّ الله قد وضع في هذا المكان اكثر مما يمكنهُ الانسان

١) راجع الصفحة ١٠ من كتاب للعلّامة دلتش حيث أتّم في اقوال العلماء عن مكان الفردوس والصفحة ٤٣ (F. Delitsch : *Wo lag das Paradies?* 43)

ان يتصوّرهُ فاني كنتُ اتوق الى مرأى فردوس عدن فها هوذا بعينهِ (١)

لا أريد ان احكم في هذا القول اهو عين صواب او هو بالحري وصف تخيّلي لشاعر متفنن وليست غايتي ان أنسب لهُ حلّ هذا المشكل العويص. ولكن يمكننا ان نعتبر هذا البحث من وجه آخر فنحصرهُ في حدود معلومة. ولا يخفى عليّ بانهُ يلذُّ القرّاء ان يستقروا اخبار الشعوب جيلًا بعد جيل ليعرفوا مهد الجنس البشري ويتبيّنوا موقع الفردوس الارضي. لكنّ هذا البحث يخرج عن حيّز الممكنات وانّما نستطيع ان نقتصر في البحث عمّا ورد في تاريخ السلالتين العظيمتين من السلالات البشريّة اللتين لعبتا في العالم اشرف الادوار نريد الامم الساميّة والهندواوريّة فنقول:

انّ المذهب الشائع بين العلماء في موطن بني سام الاصلي انّهم ظهروا في شبه الجزيرة التي موقعها بين خليج العجم والبحر الهندي والبحر المتوسط اعني في مربّع عظيم تشغل سوريّة جهتهُ الغربيّة. لا نجهل انّ غيرهم من المستشرقين يجعلون اصل الساميّين في افريقية ويزعمون انهم تخطّوا منها الى آسية. فرأيهم هذا يستدعي بحثًا لا يسعنا الآن الخوض في غمرهِ. وما لا شبهة فيهِ انّ مهد الساميين التاريخي حيث يظهرون في نور التاريخ فنتبع اعمالهم واخبارهم دون ريب وغيّر خواصّهم التي تفرزهم عن غيرهم من الامم في القرون التالية قد كان موقعهُ في المربّع الكبير الذي ذكرناهُ آنفًا. سواء كان هذا المقام محلّهم الاصليّ ام لا ومنهُ انتشروا في بقيّة انحاء آسية المتقدّمة ثمّ الى كلّ انحاء المعمور. ومن اراد ان يتجاوز هذه الحدود التاريخيّة سار في مجاهل على غير هدى وتعرّض للضلال والعثرة. ولعلّ تقدّم العلوم يأتينا يوماً بوسائل جديدة لتلطيف هذه الظلمات الكثيفة (٢)

امّا السلالة الهندواوريّة التي تهمّنا من وجوه متعدّدة فانّ رأي العلماء في اصلها كرأيهم في الساميين. فانّهم لا يتفقون في تعيين مهدهم الاوّل وان كانوا يجعلونهُ في

---

١) راجع رحلة لامرتين (Lamartine: *Voyage en Orient*, ed.Hachette, I, 434).

٢) راجع ما ورد في هذا الموضوع في تآليف العلماء الآتي ذكرهم: مسبرو في تاريخ الشعوب الشرقيّة (Maspéro: *Hist. anc. des peuples de l'Orient*, I. 550) ثم مقالة فنكلر في شعوب آسية المتقدمة (H.Winckler: *Die Völker Vorderasiens*) في مجموعة « Der alte Orient » ثمّ كتاب غريم (Grimme: *Mohammed*, 6).

آسية ليس بعيدًا من البلاد التي سبق القول فيها بأنَّ الساميين اخوة الآريين سكنوها في طورهم التاريخي

وليس ذلك تكتفي بما يأتي وهو انَّ العلماء مهما تقدَّموا في الدروس التاريخيَّة المتعلّقة بنشأة الجنس البشري زاد ايضًا توجه ابصارهم الى ذلك القسم من آسية المتقدّمة الذي سوريَّة تُعدّ مركز له فيجعلون فيه مهد الانسانيَّة . والحق يقال انك إن تصفَّحت تاريخ الشعوب اربعة آلاف سنة قبل المسيح وجدت البلاد الغربيّة متكتّمة في ظلمة الهمجيَّة بينما نرى الجهات الواقعة في شرقيّ البحر المتوسط مزدهرة بنور التمدُّن اعني وادي النيل والاصقاع الاسيويَّة المجاورة له من سواحل الشام وضفاف الفرات ودجلة . فيكون منشأ التمدُّن جنوبيّ غربي آسية ومنهُ انتشر جيلًا بعد جيل الى بقيَّة البلاد حتى عمَّ الامم المتنوّرة (١ . وبعبارة اخرى يصحُّ القول بانَّ سوريَّة كانت في مركز دائرة كبيرة من البلاد التي ألّفت العالم القديم حيث كانت نشأة التمدُّن الاوَّل في المسكونة وان عجزنا عن بيان وقوع الفردوس فيها فكفاها فخرًا انَّها كانت مهد تاريخ البشر . ومن ثمَّ نقول ايضًا عن سوريَّة انَّها من الاقطار التي استوطنتها المستعمرات البشريَّة الاولى إن لم تكن اوَّل ارض وطئها الانسان بقدمه . وما لا ريب فيه انَّ سوريَّة قد تفرَّدت مع بلاد بابل والقطر المصري بكونها حفظت اقدم ما وُجد من الآثار المنبئة بوجود الانسان الناطقة باعماله الاولى . وهو لعمري مجدٌ اثيل احرزتهُ لها في ميدان لم يجارها فيه الّا القليل

٢

موقع سوريَّة الجغرافيّ

لسوريَّة فضلًا عن كونها من مواطن البشريَّة الاولى فضلٌ آخر وهو موقعها العجيب في وسط العمور . فانَّها قائمة في حدود الشرق كالحارس يصونها وهي مع ذلك قسم صالح من حوض البحر المتوسط الذي يوصلها باقطار الغرب تراها منفصلةً عن آسية المتقدّمة بجبال طورس الشامخة وبصحاري جزيرة العرب يصلها بافريقية برزخ دقيق

(١ راجع جغرافيّة روكلو (Elisée Reclus: *Asie Antérieure*, 1, 2)

برزخ سويس واقعةً على سواحل البحر المتوسط الذي كان يُعدّ الى اواسط القرن السادس عشر كبحر المسكونة كلها فأسرع سكّان الشام وسلكوا هذه الطريق اللاحبة ودخلوا ذلك الباب الواسع المفتوح في وجه نشاطهم وتقاطروا الى الجزائر النازحة والبلاد السحيقة الواقعة في الغرب فطبعوا فيها صورة تمدُّنهم وآثار حياتهم. فكأنهُ تبارك وتعالى لم يجعل سوريَّة على جوار البحر المتوسط الذي اضحى منذ ٣٠٠٠ سنة من اخصّ سُبُل التمدُّن الّا ليجعل اهلها في مقدّمة روّاد المدنيَّة وحَمَلة الأُلفة فقاموا بهذه المهمَّة احسن قيام مدَّة نيّف والف سنة

قد قلَّد الله كلّ شعب دعوةً يفيد بها الهيئة الاجتماعيَّة. امّا خاصَّة الفينيقيين واهل سوريَّة فانّ دعوتهم انّما كانت نشرَ التمدُّن. نعم انّ التمدّن بلغ في بابل واشور مبلغًا اعظم منهُ في انحاء الشام كما انّ عقول الاشوريين لم تكن أقلّ توقُّدًا من جيرانهم. لكنّ فعلهم في نشر الترقّي المدنيّ كان دون فعل الفينيقيين. فماذا اقعدهم لذلك؟ انهم يُعطَوا هبةً نالها السوريّون فامتازوا بها في كلّ اجيالهم نريد الاقدام على نشر المشروعات. لانّ الاشوريين لم يجدوا بقربهم بابًا بحريًّا يخرجون منهُ الى بقيَّة انحاء العالم وينشطهم على العمل ويشدّد ازرهم للتوسُّط في المعاملات بين الشعوب المتباينة وكلّ ذلك قد اصابهُ السوريُّون لوجود موطنهم بين بلاد متوغّلة في التمدُّن وبلاد جديدة كانت منتظرة نعمة هذه المدنيَّة. وكان السوريون دون جيرانهم البابليين والمصريين قدرةً وثروة فسدُّوا ما ينقصهم من هذا الوجه بما اتاحهم الله من حسن الموقع والمنافع الجغرافيَّة

ولمّا نالت سوريَّة هذا المقام في الوَضع الطبيعيّ صارت في كلّ الازمنة هي الوصلة بين الشرق والغرب تتوسط بهما جميعًا دون ان تختصّ بامدهما. فان اعتبرت سكّانها ولغتها ورسومها فهي شرقيَّة. وان لحظت جيرتها من بحرٍ غربيّ ومعاملاتها المتوالية مع الامم الساكنة في حوض البحر المتوسط واخلاق اهلها المتنوّعة العامّة فهي اشبه بالغرب. ولذلك تراها اذا تصفَّحت تاريخها القديم كمبر ومجتمع كانت تتصافح فيهما كلّ الامم القديمة فتتلاقى فيهما كأنها في بلادها جميعًا. وكان الله سبحانهُ وتعالى قد قضى ان يكون هذا الالتقاء سلميًّا جامعًا للقلوب وربّما تبلبل نظام الخالق بسوء نيّات الشعوب فصارت سوريَّة ساحةً للقتال جرت فيها الدماء سيولًا بدلًا من ان تصير سوقًا لتجارة الارض ومرسحًا للألفة والتحابّ. فكم من امَّة طمعت في اقتناء سوريَّة وبذلت دونهـا كلّ غالٍ

ونفيس خصوصاً في أيام الاشوريين وفي عهد الفراعنة. فكانت منافعها الجغرافيَّة تتحوَّل لها الى ويلات وشرور. وقد قامت بعد هذه الدول دول اخرى تختلف اسماً وجنساً لكنَّها لم تختلف فعلاً. وكما قدم الى سوريَّة رعمسيس الثاني ونبوكدنصَّر كذلك جاءها الاسكندر وكثيرون غيره ترى كتاباتهم واسماءهم مرقومة في متحف طبيعي عجيب تحت القبَّة الزرقاء اعني به مضيق نهر الكلب (١ (له بقيَّة)

حوادث السنة الغابرة

نظرة للاب لويس معلوف اليسوعي (تتمة)

آسية

﴿ الصين ﴾ ضربت معاهدة في اوائل السنة الماضية بين الصين واليابان غايتها تقرير بعض امور تتعلق بمعاهدة السلم بين اليابان وروسيَّة. وفي تلك المعاهدة تعترف الصين لليابان بكل الحقوق التي خوَّلها اياها الظفر وكذلك رضيت حكومة الميكادو بالمحافظة على الاتفاقيَّات الموجودة سابقًا بين الصين وروسيَّة بالنظر الى السكك الحديديَّة وما سوى ذلك

عُقدت معاهدة اخرى بين الصين وانكلترة اهمّ ما جاء فيها ان دولة انكلترة والتبَّت يعترفان للصين بحقوق الحماية على التبَّت وان انكلترة لا يحق لها التداخل في شؤون داخليَّة هذه البلاد طالما لا يتداخل فيها غيرها من الدول

على ان ما استوجهت الصين به الحاظ العالم اجمع هو انتباهها الى تعزيز قواها العسكريَّة وجدّها في تنظيمها وليس الامر دون ان يثل امام اعين رجال السياسة ذلك الخطر الذي كثيرًا ما أُطلقت الالسنة به اعني الخطر الاصفر فان تلك الأمَّة الصينيَّة التي ينيف سكانها عن ربع سكَّان الارض اذا صارت جيوشها تضاهي جيوش الامم المتقدمة تدرُّبًا وحنكة وصارت تتلاعب بالمدافع الجديدة الطرز في ساحات

١) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ١ ص ٨-٩)